

10- المنهج المقارن Comparative method

المقارنة من الطرق التي دأب الإنسان على الاستعانة بها في مقارناته المتعددة بين الأشخاص و الأشياء و الأحداث و السلع و المواقف... و هي عملية ضرورية للتفكير العلمي و تطويره. و عن نشأته التاريخية فإن استخدامه كان في الفترة اليونانية من طرف ارسطو و افلاطون عند مقارنتهما للقضايا التي يعتبرونها محورية و أساسية في حياة المجتمعات الإنسانية. كما تعود أصوله إلى كتابات الرحالة منذ آلاف السنين، إلا أن الانثروبولوجيا هي أول العلوم الاجتماعية التي احتلت فيها المقارنات الثقافية مكانة بارزة على يد ' تايلور Edward Burnett Tylor ' و ذلك عام 1889. (احمد عطية احمد، حامد عمار، 1999، ص 161) دون إغفال الدراسات التي أنجزتها مارجريت ميد Mead حول الصفات النفسية لبعض القبائل البدائية و مقارنتها عند الإنسان المتحضر ، و أعمال بنيدكت Benédict حول المقارنة بين الأنماط الثقافية. و يشير البعض أن المنهج المقارن شائع في جميع العلوم الإنسانية و الاجتماعية، إلا انه في ميدان علم النفس ' يسمى تسمية خاصة هي (المنهج العابر للثقافات) أو (منهج) (الدراسات التعاونية المقارنة). أو (علم النفس المقارن) الذي يهدف إلى الفهم العلمي الدقيق للفروقات و التشابهات بين مجموعتين أو أكثر من الأفراد و الظواهر النفسية و الذهنية، تبعا لمتغيرات اجتماعية، عمرية، تحصيلية ، مهنية، بيئية و ثقافية .. .

و نشير إلى نقطة منهجية هامة و هي أن هناك فرق بين علم النفس المقارن و علم النفس الفارقي، هذا الأخير يسعى إلى الوقوف على الفروقات و الاختلافات فقط بين الأفراد و الجنسين و الجماعات في درجة أو شدة الخاصية الواحدة اعتمادا على القياس و الإحصاء. بينما علم النفس المقارن يهدف إلى معرفة نقاط التشابه و الاختلاف بين ظاهرتين أو نمطين من السلوك أو أكثر.

*التعريف الاصطلاحي:

- فهو نوع من مناهج البحث العلمي الذي يعتمد أساسا على المقارنة في الظاهرة المدروسة بغرض إبراز أوجه التشابه و الاختلاف فيما بين ظاهرتين أو أكثر.

و هو من أكثر المناهج استخداما في دراسات : الاجتماعية، القانونية ، التربوية، النفسية، الشرعية، الانثروبولوجية.. .

- يصف عالم الاجتماع ايميل دوركايم David Émile Durkheim المنهج المقارن بأنه: نوع من التجريب غير المباشر. كما يعرفه المفكر جون استوارت ميل John Stuart Mill بأنه: عملية مقارنة لنظامين أساسيين متماثلين في كل الظروف ولكنهما يختلفان في عنصر واحد وذلك حتى نتمكن من تتبع نتائج هذا الاختلاف.

- هي منهجية تركز بالأساس على الإجابة عن سؤال، كيف؟ و لماذا تحدث الظاهرة ؟ و تقارن جوانب التشابه و الاختلاف بين الظاهر المختلفة ، بهدف الكشف عن العوامل التي تؤثر فيها، و تسعى إلى إبراز العلاقات التي تكمن وراء الحالة السطحية، و تصف العوامل التي تكمن وراء هذه الظاهرة، و تحاول تحديد الظروف المشتركة بين العوامل المدروسة التي تشكل سبب الظاهرة. (جامع جغايي، 2003، ص 29)

- فالمنهج المقارن مجموعة من العمليات الذهنية محددة ومتعددة في ذات الوقت تعتمد على التحليل والتركيب و وصف الظاهرة وعدم عزلها عن سياقها التاريخي، الثقافي، الاجتماعي....، فهو هدف في حد ذاته فتكون المقارنة مهيمنة على البحث ككل.

فالمنهج المقارن يركز على الأسئلة الآتية: ماذا يقارن؟، لماذا يقارن؟ وكيف يقارن؟ و متى يقارن؟ و أين يقارن ؟

*خصائص المنهج المقارن:

- يهدف المنهج المقارن إلى تحديد أوجه التشابه والاختلاف بين ظاهرتين أو أكثر ولكن في فترات زمنية مختلفة.
- تشمل طريقه المقارنة إجراء مقارنه بين ظاهرتين سواء كانت: اجتماعية ، تربوية اقتصادية، طبيعية ، سياسية أو ثقافية.. ، بقصد الوصول إلى حكم معين يتعلق بوضع الظاهرة في المجتمع. و الحكم هنا مرتبط باستخدام عناصر التشابه أو التباين بين الظاهرتين المدروستين أو بين مراحل تطور ظاهره ما .
- على الرغم من أن المنهج المقارن هو منهج مستقل إلا أنه يتكامل و يتقاطع مع مناهج أخرى مسانده له مثل المنهج الوصفي التحليلي وهنا نكون بصدد المنهج التحليلي المقارن، أو مثل المنهج التاريخي ويطلق عليه في هذه الحالة المنهج التاريخي المقارن أو للمقارنة . أو مثل علم النفس و علوم التربية و يسمى علم النفس المقارن و التربية المقارنة. أو مثل العلوم القانونية

و يطلق عليه القانون المقارن. وهناك أيضا الأدب المقارن و الدراسات اللغوية و اللسانية المقارنة...

* خطوات المنهج المقارن:

- تحديد موضوع المقارنة: بعد الاطلاع على موضوع البحث على الباحث أن يقوم بتحديد مشكلة البحث العلمي الخاص به، أي الظاهرة المتجانسة أي المتماثلة لا المتناقضة. و التعرف و اختيار العينة التي سيعمل عليها.
- صياغة الفرضيات و تحديد متغيرات المقارنة: وذلك بالتوصل إلى نقاط الاتفاق ونقاط الاختلاف بين المتغيرات. و التي سيقوم بوضعها في بداية بحثه العلمي.
- القيام بجمع البيانات و المعلومات: باستخدام أدوات البحث العلمي وتحليلها وتصنيفها.
- تفسير نتائج موضوع المقارنة: أين يقوم الباحث بالاطلاع على عدد من الأبحاث العلمية التي تناقش نفس الظاهرة التي يدرسها، وبالتالي سيكون من السهل المقارنة و الوصول إلى نتائج نهائية.
- الوصول إلى نتائج المقارنة: وذلك بعد أن ينتهي الباحث من عمليه المقارنة بين موضوع الدراسة وبين النتائج التي تحصل عليها حيث يستطيع في هذه الحالة أن يقوم بكتابة تقريره العلمي أو بنشر بحثه العلمي المزود بعدد من النتائج التي يضعها في خدمة العلم.

* حالات استخدام المنهج المقارن وهي :

- مقارنة متغير واحد في مجتمعات متشابهة: مثل: التحصيل العلمي لأبناء الطبقة العاملة في مجتمعين صناعيين .
- مقارنة عدة متغيرات في مجتمعات متشابهة: مثا : دراسة الوضع الاقتصادي (معدل الدخل، معدل البطالة، سعر السلع) في الدول العربية.
- مقارنة عدة متغيرات في مجتمعات متباينة: مثا : دراسة العلاقة بين النوع الاجتماعي (ذكور-إناث) ومعدل الدخل الفردي، في المجتمعات العربية (وهي مجتمعات نامية عموما) مقارنة مع المجتمعات الأوروبية (وهي مجتمعات متقدمة ومتطورة)

- مقارنة عدّة متغيرات في مجتمع واحد: مث ال: دراسة علاقة النمو الديموغرافي بين طبقة اجتماعية حضرية وأخرى ريفية في مجتمع ما. (<http://elearning.univ-djelfa.dz>)
- دراسة أوجه الشبه و الاختلاف بين الأنماط الرئيسية للسلوك الإنساني.
- دراسة أوجه الشبه و الاختلاف بين مراحل و مظاهر النمو الإنساني .
- دراسة أوجه الشبه و الاختلاف بين الأنماط الرئيسية للسلوك اللاسوي أو المرضي .
- دراسة أوجه الشبه و الاختلاف للسلوك الحيوان بين بعض الأنواع و السلالات.
- دراسة أوجه الشبه و الاختلاف بين الأنماط أو السمات الرئيسية للشخصية القومية لعدة دول
- دراسة أوجه الشبه و الاختلاف بين المنظومات الاجتماعية و التربوية و التعليمية و الصحية و الأدبية و القانونية بين عدة مجتمعات.
- دراسة أوجه الشبه و الاختلاف بين الأنماط الرئيسية الثقافية لعدة مجتمعات.
- *أنواع المقارنات: هناك عدة أنواع من المقارنات نذكر منها:
- المقارنة الكيفية: متابعة و رصد كل الملاحظات حول خصائص و مظاهر الظاهرة المدروسة و تفسيرها و تتبع تغيراتها و تطورها في ارض الواقع.
- المقارنة الكمية: حصر الظاهرة المدروسة بطريقة عددية أو كمية. و يسمى هذا النوع بالمقارنة التجريبية أو العملية وهي نوع المقارنة التي تستخدم التجربة و القياس.
- المقارنة المغايرة: وهي المقارنة بين حادثتين اجتماعيتين أو أكثر تكون أوجه الاختلاف فيها أكثر من أوجه التشابه، مث ال: المقارنة بين الطلاق والخلع كنظامين لإنهاء عقد الزواج. أو بين العصاب و الذهان في علم النفس المرضي.
- المقارنة الاعتيادية: وهي مقارنة بين حادثتين أو أكثر من جنس واحد تكون أوجه التشابه بينهما أكثر من أوجه الاختلاف مثل: الهدر المدرسي و التسرب المدرسي. أو مثل: صعوبات التعلم و عوائق التعلم.

- المقارنة الداخلية: تدرس حادثة واحدة مثال: مقارنة التعليم بين المنظومة التربوية في الجزائر و المنظومة التربوية في تونس .
- المقارنة الخارجية: وهي مقارنة حوادث أو ظواهر اجتماعية مختلفة عن بعضها. مث ال: دراسة التنمية الاقتصادية بين بلدين واحد يتبع النظام الاشتراكي و آخر يتبع نظام رأسمالي.
- المقارنة العرضية: تكون بمقارنة ظاهرة اجتماعية واحدة، ولكن في أكثر من مجتمع أو منطقة جغرافية أو على فترة زمنية محددة. مثل: نظام الزواج.
- المقارنة الطولية: يكون هذا النوع بمقارنة ظاهرة اجتماعية واحدة في مجتمع واحد، ولكن خلال فترة زمنية طويلة، ويكون الهدف من هذا النوع دراسة تطور الظاهرة أو التغيير التي طرأ عليها خلال الزمن. مثل: المنظومة الصحية.
- المقارنة واسعة المجال: حين يجري الباحث دراسة مقارنة حول موضوع واحد و لكن بين عدة مجتمعات إنسانية.
- مقارنة ضيقة أو محصورة: أي تكون المقارنة حول ظواهر داخل نفس المجتمع و لكن في فئات أو طبقات مجتمعية مختلفة.
- المقارنة الزمنية (تاريخية): أين تتم دراسة الحادثة أو الظاهرة نفسها في فترتين زمنيتين مختلفتين مثال: التعليم الجامعي الجزائري قبل و بعد الاستقلال.
- المقارنة المكانية (الإقليمية): تكون المقارنة في هذه الحالة حول نفس الظاهرة أو الحادثة في حيزين مكانيين أو إقليميين جغرافيين مختلفين في نفس الفترة الزمنية، مثال: التكفل بإدماج المساجين بين النظامين التشريعيين الجزائري و الايطالي.
- المقارنة الزمنية والمكانية: هذا النوع من المقارنة يجمع بين النوعين السابقين، حيث تكون المقارنة حول الظاهرة في دولتين أو إقليميين جغرافيين مختلفين وفي فترتين مختلفين مثال المقارنة بين إجراءات الوقاية من الأوبئة بين النظام الصحي الجزائري و الموريتاني قبل وبعد جائحة كوفيد 19

*مميزات المنهج المقارن :

- الوصف و التحليل دقيق للظاهرة المدروسة، وإجراء المقارنة عليها.
- يمكن فهم كافة الظواهر أو المشكلات الخاصة بالدراسة.
- من خلال هذا المنهج بإمكانك أن تقوم ب إجراء التجارب، و عند بعض الباحثين، فهو بديل عن العلوم التطبيقية.

*عيوب المنهج المقارن :

- يعتبر تحديد المفاهيم و ضبطها إجرائيا من خلال هذا المنهج أمراً صعباً للغاية.
- من الصعب أن يحدد الفرد الوحدة المُستخدمة لإجراء المقارنة.
- ستجد صعوبة في تحديد كافة الصفات الخاصة بالظاهرة المدروسة.
- في بعض الحالات يكون المنهج المقارن سطحي للغاية، ويهتم بالأشياء الظاهرة و بالقشور الخاصة بالظاهرة وحسب.
- لا يمكنك التوصل إلي النتائج إذا كان الاختلاف في الظواهر كبير.
- الصعوبة في إجراء المقارنات في الأبحاث الاجتماعية نظرا لتعقدها و تشابكها.
- من الصعب في كثير من الأحيان تحديد السبب من النتيجة أو العلة من المعلول خصوصا إذا كان التلازم بينهما هو تلازم قائم على الصدفة وليس تلازما سببيا.

- لا ترتبط النتائج غالبا وفي كثير من العلوم بعامل واحد بل تكون حصيلة مجموعة من العوامل

المتداخلة والمتفاعلة مع بعضها البعض.

- قد تحدث ظاهرة ما نتيجة لسبب ما في ظرف معين وقد تحدث هذه الظاهرة نتيجة لسبب آخر يختلف عن السبب الأول في ظرف آخر.

- غياب أو ضعف التفسير السياقي . ف من الصعب مثلا فصل دراسة الظاهرة النفسية بمعزل عن محيطها الاجتماعي الذي نشأت فيه ، فهي ليست مجردة من الارتباطات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية والثقافية، و هذا ما يغفل عنه بعض المستخدمين لهذا المنهج.
- صعوبة تعميم النتائج للظواهر العامة.